المحاضرة الساسة

المرابطون في الأندلس 478– 540هـ/ 1086– 1146م

كان لسقوط طليطلة في مستهل صفر سنة 478هـ في أيدي القشتاليين دوي هائل في الأندلس والعالم الإسلامي، وعُدَّ سقوطها واحدة من المآسي الكبرى في تاريخ المسلمين؛ لأن سقوطها لم يكن عن عجز في المقاومة أو ضعف في الدفاع، أو قلة في العتاد، وإنما سقطت لسقوط قيم النجدة والإغاثة، وتردي شيم المروءة والأخوة؛ فتركها جيرانها من ملوك الطوائف تسقط، وتخرج من قبضة الإسلام إلى الأبد، دون أن يتقدم أحد لنجدتها باستثناء صاحب بطليوس، وتركت المدينة المنكوبة لمصيرها المحتوم.

صحوة ملوك الطوائف

شجعت مواقف ملوك الطوائف المخزية أن يتحرك "الفونسو السادس" ملك قشتالة في محاولة منه لالتهام حواضر الإسلام الأخرى، فتوالت غزواته، وراح يهدد سرقسطة وإشبيلية وبطليوس وغيرها من قواعد الأندلس، كان ذلك نذيرًا.. فتحرك ما بقي من ضمائرهم، وتفتحت أعينهم على حقيقة جلية، وهي أن ما أصاب طليطلة سيصيبهم، ولن تنفعهم معاهدات عقدوها مع ملك قشتالة، وأن مصيرهم إلى السقوط والهلاك ما لم يتداركوا مواقفهم، وتتحد كلمتهم وتجتمع على كلمة سواء.

وأدرك "المعتمد بن عباد" صاحب إشبيلية خطورة الموقف، وهو أشد ملوك الطوائف مسئولية عما حدث؛ لأنه كان بإمكانه نجدة طليطلة، ومد يد العون إليها، لكن غلَّت يديه معاهدةٌ مخزية عقدها مع القشتاليين بمقتضاها يتعهد ملك قشتالة بمعاونة المعتمد ضد جيرانه من الأمراء المسلمين، وفي المقابل يتعهد المعتمد بأن يؤدي الجزية لملك قشتالة، وأن يطلق يده في أعماله العسكرية ضد طليطلة، دون أن يتدخل لوقف أعماله، وبعد سقوط طليطلة، بدأ ألفونسو ملك قشتالة يشتد في مطالبه المالية ويرهقه بالمزيد منها، بل إنه كاتبه يطالبه بتسليم بلاده، وينذره بسوء المصير، وبدأ بالفعل في اجتياح بلاده وتخريب مدنها وقراها.

رعي الإبل لا الخنازير

أجمع ملوك الطوائف على ضرورة الاستغاثة بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين المغربية وكانت دولة قوية بسطت نفوذها بالمغرب، وكان قد ذاع صيته، واشتهر أمر فُتُوحه في المغرب، وحبه للجهاد، وإقامته حكومة تقوم على العدل والقسطاس.

وبدأ ملوك الطوائف يكاتبون الأمير يوسف ويرسلون إليه الرسل، يستنصرون به على محاربة النصارى الذين اشتد سلطانهم، وتفتحت شهيتهم لالتهام الأندلس، ويصفون له حالهم وما ينتظرهم من خطر السقوط والفناء؛ إذ لم يبادر هو بإغاثتها ونصرها.

ولم تكن فكرة الاستنصار بالمرابطين تلقى إجماعًا بقبولها من قبل ملوك الطوائف، فقد كان هناك من يخشى مغبة هذه السياسة ويعارض قيامها، مخافة أن يطمع المرابطون في بلادهم فيلحقوها بدولتهم الفتية، غير أن "المعتمد بن عباد" حسم الموقف وأخمد الفتنة بمقولته المأثورة: "رعي الإبل خير من رعي الخنازير" يقصد بذلك أنه يفضل أن يكون أسيرًا لدى أمير المرابطين يرعى له جماله من أن يكون أسيرًا لدى ملك قشتالة.

استجاب يوسف بن تاشفين لدعوة ملوك الطوائف، وأعد جيشًا عظيمًا، عبر به البحر المتوسط إلى الأندلس، فاستقبله أمراؤها، وسار بجيشه إلى إشبيلية حيث وافته جيوش الأندلس، وفي أثناء ذلك الوقت كان "الفونسو" ملك قشتالة مشغولاً بمحاربة "ابن هود" أمير سرقسطة، فلما علم بخبر عبور المرابطين ترك محاربة ابن هود، وجمع جندًا من سائر الممالك النصرانية للقاء الجيوش الإسلامية، فالتقى الفريقان في سهل الزلاقة بالقرب من بطليوس، في معركة حاسمة في (12 من رجب 479هـ/ 23 من أكتوبر 1086م)، ثبت فيها المسلمون وأبلوا بلاءً حسنًا حتى أكرمهم الله بالنصر، وقتل معظم جيش القشتاليين، ومن نجا منهم وقع أسيرًا، وفر ملكهم بصعوبة في بضع مئات من جنده جريحًا ذليلاً، وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب متوجًا بتاج النصر والفخار، وملقبًا بأمير المسلمين.

كان هذا النصر عزيزًا، أعاد الثقة في نفوس الأندلسيين، واهتزت له مشاعر المسلمين فرحًا، ورد خطر القشتاليين عن الأندلس إلى حين بعد أن كانت على موعد مع الغثاء والهلاك، وكتبت لها حياة جديدة، امتدت إلى أربعة قرون أخرى.

عبور المرابطين ثانية

لم يكد يستقر يوسف بن تاشفين في المغرب حتى عادت كتب الأندلسيين ووفودهم تترى عليه؛ طلبًا لنجدتهم من القشتاليين الذين عاودوا التدخل في شئون شرقي الأندلس في بلنسية ومرسية ولورقة، فأجابهم إلى ذلك، وعبر بقواته إلى الأندلس في (ربيع الأول 481هـ/ جويلية 1088م) واتجهت مع القوات الأندلسية إلى حصن (ليبط)، وهو حصن أقامه القشتاليون بين "مرسية" ولورقة، ليكون قاعدة للإغارة على أراضي المسلمين في هذه المنطقة.

حاصرت القوات المتحدة هذا الحصن، وسلطت عليه آلات الحصار، وضربوه بشدة، لكنها لم تنجح في هدمه أو إحداث ثغرة ينفذ منها المسلمون؛ نظرًا لمناعته واستماتة المدافعين، ودام الحصار نحو أربعة أشهر دون جدوى، ففك يوسف بن تاشفين الحصار بعدما كبد حامية الحصن خسارة كبيرة، وأهلك معظم رجاله حتى إن ملك قشتالة حين قدم الحصن لنجدته لم يجد فيه سوى مائة فارس وألف راجل (محارب من المشاة)، بعد أن كان يضم عند محاصرته ثلاثة عشر ألف مقاتل، ثم عاد يوسف إلى بلاده بعد ترك بعض قواته تحت إمرة خير قواده (سير بن أبي بكر اللمتوني).

ساء ت أحوال الطوائف, مرة أخرى. وعادوا إلى خلافاتهم، وبسبب ذلك ترددت الكتب والفتاوى من مسلمي الأندلس، إلى يوسف بن تاشفين بإنجادهم وإنقاذهم، من ملوك الطوائف هذه المرة. كما وردت الفتاوى من بعض فقهاء المشرق وعلمائه، أمثال: أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ/ 1111م) وأبي بكر الطرطوشي (ت 520هـ/ 1126م). وأمام ظروف الأندلس وأحوالها استجاب يوسف لذلك. وجهز جيشا وعبر الأندلس للمرة الثالثة في أوائل سنة 483هـ/ 1090م، واتجه لتوه إلى طليطلة التي أصبحت عاصمة قشتالية. وحين شاهد ابن تاشفين مناعتها، تركها عائدا إلى جنوب الأندلس متوجها صوب غرناطة حيث استلم له أميرها عبد الله بن بلقين في سنة 483هـ/ 1090م. وفرح أهل الأندلس لهذا.

عاد أمير المسلمين إلى المغرب، وترك عددا من قادته، ليتموا خلع ملوك الطوائف. وخضعت قرطبة وكانت تابعة لبني عباد للمرابطين سنة 484هـ/1091م، وقتل حاكمها الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون.

لما علم ألفونسو السادس باتجاه الجيش المرابطي صوب إشبيلية . بعد إخضاع قرطبة . بقيادة سير بن أبي بكر، أرسل إليهم حملة بقيادة البرهانش مؤلفة من عدة آلاف، من فارس وراجل. دارت في أحواز إشبيلية معركة عنيفة انتهت بانتصار المرابطين، بعد ما أثخن القائد القشتالي بالجروح.

استسلمت إشبيلية للمرابطين. في شهر رجب من السنة المذكورة . بعد مقاومة شديدة من المعتمد وأخذت المرية من حاكمها معز الدولة أحمد بن المعتصم بن صمادح في رمضان سنة بن عباد، الذي أسر ونفي إلى أغمات في المغرب، وتوفي هناك في شوال سنة 488هـ/ 1095م. 484هـ/1091م، ومرسية في شوال، وكذلك شاطبة ومدن أخرى سنة 485هـ/1092م.

بعد ذلك ستأتي صفحة أخرى من جهاد المرابطين في الأندلس، حيث أنفقوا جهودا كبيرة لإنقاذ بلنسية من الطاغية القمبيطور والقشتاليين. دخل المرابطون بلنسية، معيدين فتحها، في شهر رجب سنة خمس وتسعين وأربع مئة للهجرة، وحدثت موقعة أقليش بين المرابطين والجيش القشتالي، الذي تمزق، وقتل فيه الابن الوحيد للفونسو السادس، سنة 501هـ/1107م. بعدها دخلت سرقسطة والثغر الأعلى تحت سلطان المرابطين، كما دخلت تحت سلطانهم مملكة بطليوس، في غرب الأندلس، التي كان يحكمها بنو الأفطس سنة 488هـ/1095م . وأرسلت . بعد ذلك حملة مرابطية إلى أشبونة (لشبونة)، حيث كانت تحتلها الجيوش القشتالية وفيها حامية من جيشهم. واستطاع المرابطون إخضاعها.

عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس عبوره الرابع سنة (490هـ-1096م)، وكان قد عهد بأمور الأندلس إلى كبير قادته سير بن أبي بكر. ووجه جيشا بقيادة محمد بن الحاج صوب طليطلة عاصمة قشتالة. والتقى بالقشتاليين بقيادة الفونش السادس قرب كنشرة (Consuegra)، فانهزم الجيش القشتالي متكبدا خسائر كبيرة سنة 491هـ/1097م.

توجه يوسف إلى قرطبة سنة 495هـ/1101م لأخذ البيعة لابنه أبي الحسن علي، وكان بصحبته أخوه الأكبر أبو الطاهر تميم. اشترط في هذه البيعة لعلي أن ينشئ في الأندلس جيشا مرابطيا ثابتا، يوزعه على سائر القواعد. وعاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش، حيث توفي في أول محرم سنة (500هـ/ 1106م). أوصى ابن تاشفين ولي عهده بأمور تتعلق بحسن السياسة والرفق والعناية بالأندلس. خلف علي أباه يوم وفاته، وأخذت له البيعة، واختار يوسف عليا ليخلفه، لما يتمتع به من النباهة والحزم والتقوى، وكان مقتفيا سيرة والده. وعبر في السنة الأولى من حكمه إلى الأندلس مجاهدا، وأجرى بعض التغييرات الإدارية، فعين أخاه أبا الطاهر تميما قائدا أعلى للجيوش في الأندلس، ثم عاد إلى المغرب.

وامتد حكم على بن يوسف حتى عام 537هـ. وبعد فترة غير قليلة من وفاته بدأ الضعف يدب في أوصال دولة المرابطين، إذ بدأ يتوالى على الحكم أمراء ضعاف النفوس، لم يستطيعوا الحفاظ على دولة المرابطين في وجه حملة دولة الموحدين في إفريقية وثوار الأندلس، فما أن وافت سنة (540هـ) حتى انتهى ملك المرابطين وتم خضوع الأندلس وشمالى إفريقيا لدولة الموحدين.

الاضمحلال

بدأت هذه الدولة تدخل في طور الأفول في عهد علي بن بوسف بن تاشفين لأسباب أبرزها:

1- انصراف علي بن يوسف عن شؤون الحكم إلى الزهد السلبي، ووقع تحت تأثير بعض الفقهاء ممن لا يحسنون السياسة.

2- انصرف فقهاء دولته في عهده وعهد من خلفوه إلى تكفير الناس بحجج واهية، واتجهوا إلى جمع الثروات، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. 3- لم يعد لهم جيش يعوّل عليه في صد هجمات الغزاة، بل استسلم أفراده إلى ملذاتهم، وبلغ فسادهم حد قطع الطريق على المسافرين.

4- قامت ضدهم الثورات في الأندلس أدت إلى طردهم منها، وعادت الأندلس إلى ما كانت عليه من فوضى. وقامت ضدهم ثورة في المغرب فاختلت أحوالهم. 5- قضت دولة الموحِّدين على البقية الباقية من دولتهم.

حيث تعرض المرابطون إلى هزائم متعددة على أيدي الإسبان في الأندلس، كما ضعفت قوة الدولة في المركز حيث كانت الفتن والقلائل والثورات وذلك للزيادة في المكوس وفساد الطبقة الحاكمة. وتمثل أهم الأخطار الداخلية على المرابطين بداية الدعوة الموحدية بقيادة المهدي بن تومرت والتي ابتدأت في عام 424هـ/ 1030م وتسببت في انهيار الدولة المرابطية ودخول عبد المؤمن بن علي الخليفة الموحدي لمدينة مراكش عاصمة المرابطين سنة 541هـ/ 1147م.